

تاريخ التراث الطبي الإسلامي بالمغرب

عبد العزيز بن عبد الله

والبصرة وعنى بعلم الطب ودبر مارستان محصر ثم رجع الى الاندلس سنة 360 هـ وقد ذكر صاعد « انه تمهر في الطب ونبغ فيه واحكم كثيرا من اصوله ولم يكن يلحقه احد بقربة في صناعة الطب ولا يجاربه في ضبطها وحسن دريته فيها واحكامه لغوامضها » (الفتح ج 1 ص 444) .

وأبرز طبيب عربي ظهر في الاندلس في القرن الرابع هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوى صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » وقد قال فيه احد الجراحين الغربيين « لا شك ان الزهراوى اعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة في القرون الوسطى » وكتابه هو اللبنة الاولى في هذا الفن وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية » وذكر (لوكير) (3) من جهته ان الزهراوى

ان القرن الرابع الهجرى يعد من انصح القرون في اسبانيا العربية سواء من حيث دراسة الفنون ام من حيث المؤسسات والمخترعات العلمية . ففى هذا القرن برز ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعى في عصره حيث عرب مفردات (ديستوريدس) وزاد عليها الادوية المعروفة عند العرب والتي جهلها ديستوريدس (1) وقد كتب ابن جلجل ايضا تاريخا للطباء والحكماء الذين ظهوروا قبله في الاندلس .

والوليد المدحجى الطبيب قد دخل الاندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وكان طبيبه اخذ عنه ابنه ابراهيم واسحاق بن عمران هو الذى ادخل الطب الى المغرب وكذلك ابن الجزائر صاحب زاد المسائر وقوت الحاضر وهو احمد بن ابراهيم بن ابي خالد المتوفى عام 395 هـ (1004 م) (2) .

ومما يدل على اهمية اطباء الاندلس في القرن الرابع ان محمد بن عبدون القرطبى دخل مصر

اعظم ممثل لعلم الجراحة في المدرسة العربية (ج 1 ص 334) .

لما في المغرب الاقصى فمن الصعب تأكيد ابان ابتداء الازدهار الا ان الدكتور لوكلير أكد ان الطب ازدهر في هذه الربوع خلال القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ازدهارا عابرا مع الاسف (ج 1 ص 334) .

ثم تحدث في موضع آخر عن اطباء المغرب نلاحظ ان المغرب هو اشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية (ج 1 ص 407) .

ومع ذلك فقد كان في المغرب الثلاثة اطباء مهرة في هذا العصر يدل على ذلك ما رواه القنطلى من ان (المعز الفاطمي) قد رافقه الى مصر اطباء من ارض المغرب (اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 75) .

وقد اشتهر (قسطنطين التونسي) في القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب الى اللاتينية . وقد عرف البرابر منذ عهد سحيقة حقن جراثيم الجدري وكانوا يستعملونها لتحصين المصاب (كودار - وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239) .

ونقل الكانونسي في « شهبيرات المغرب » (مخطوط) عن كتاب « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » انه كان بناس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية وذلك ايام كان المغرب تحت نفوذ الامويين .

والواقع ان الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب الاقصى الا منذ القرن الخامس فكان القرنان الخامس والسادس الهجريان ابرز العصور العلمية في الاندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحديين وذلك بفضل العناية التي اولاهها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء اذ يمكن القول - والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) - بان الفكر لم يسبق له ان تحرر كما وقع في هذا العصر وشهد بذلك نبوغ امثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذي هو اعظم فيلسوف انجبته الاندلس) وبنى زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون واعظمهم هو ابو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين اكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية يضاف الى هؤلاء الغافقي وابو الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني اللذان لفا في تاريخ الطب الطبيعي .

والغافقي هذا هو ابو جعفر احمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب المرشد في طب العميون ويوجد كتاب الاعشاب للغافقي في

دار الآثار العربية وهو يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وعتاقير وحيوانات متقنة الرسم .

زد على هؤلاء الشريف الادريسي السبتي وقد جاء في رسائل البشري انه اشتهر في فنون الهيئة والجغرافية والفلسفة والطب والنجوم وقرض الشعر بطاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية والاندلس ومرنسا وانجلترا ووصف نباتات كل قطر (الاعلام ج 3 ص 34) .

وبفضل الانبعاث العربي في الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتواندون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريبوند استقف المدينة بطباء العرب لعلاج الفتر اللاتيني واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ثم ورد جيرار دوكريمون على طليطلة حيث استقر نحو من نصف قرن نقل خلاله من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا لو افريقيا معربا في العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت - كما يقول (لوكلير) في كتابه حول الطب عند العرب (ج 2 ص 240) - جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث تضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب - فأعاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

وقد أكد الدكتور (رينو) ان المغرب لم يتم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتلقى نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في اسبانيا المجاورة ولكن منذ اواخر القرن الحادى عشر وخاصة الثانى عشر الميلاديين ابرز عصور اسبانيا المسلمة امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحديين ثم يقول (رينو) : « فكيف اذن يمكن ان ننصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس او الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في اعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى فاس او مراكش او اغمات فللمغرب الحق اذن ان يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الخ (الطب القديم بالمغرب نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72) .

فابو الوليد بن رشد الحفيد هو صاحب كتاب الكليات كان مكيئا عند المنصور ثم الناصر وقد نتم المنصور عليه واجبره على المقام في اليسانة قرب قرطبة وكانت اولاً لليهود كما نتم على ابي جعفر الذهبي

وبمحمد بن ابراهيم قاضى بجاية والكفيف لاشتغالهم بالحكمة ثم رضى عنهم عام 595 هـ وجعل ابا جعفر الذهبى مزوارا للطب ومزوارا للطباء .
وفي نفس السنة توفي ابو الوليد براكش وخلف ولدا عالما بالطب اسمه عبد الله (وهو طبيب الناصر) وقد شرح ابن رشد ارجوزة ابن سينا في الطب واعل الحكمة كانت تشمل في هذا العصر جميع شعب الفلسفة والعلوم الا ان ابن القاضى اكد بعد ذلك ان الحكيم هو عبارة عن الناظر في العيون لا في الابدان لان هذا هو الطبيب (ذرة الحجال ص 117) .
ولابن رشد تلخيص كتاب الملل والاعراض والتصرف والحيات والادوية المفردة وحيلة البرء .
وكان اكثر تلامذته - على ما يتل - من اليهود والنصارى وقتل من كان يقرأ عليه من المسلمين لرميه بضعف المعتد .

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه اطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية وقد اشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كراكر شتوية (حضارة العرب جوستاف لويون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو اول (4) من اشار الى الدورة الدموية وعللها في كتابه الكليات الذى استمد منه ويليام هارفى معظم نظرياته (5) .

ويظهر ان ابا العلاء زهر بن زهر هو اول طبيب اندلسى ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوستاف بن تاشفين بعد ان كان طبيب المعتد بن عباد باشبيلية .
وقد ذكر (البراكشى في المعجب) ان المعتد استدعى ابا العلاء لمعالجة (الرميكية) عندما كان اسيرا باغمات .

ووالد ابي العلاء هو ابو مروان عبد الملك بن ابي بكر محمد بن مروان بن زهر الذى تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (النفع ج 1 ص 445) .

وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بانه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الازجة (عيون الاتباء في طبقات اطباء لابن ابي اصيبعة ج 2 ص 64 - 66) .

وقد تمخضت تجارب ابي العلاء في المغرب عن تاليفه لكتاب « التذكرة » (الذى ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها

لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر على بن يوسف بجمع ملاحظات طبية اخرى كان ابو العلاء سجلها في اوراق وهى « المجربات » التى جمعت براكش عام 526 هـ والتى يوجد مخطوط منها في الاسكوريال (رقم 844) .
وقد ترجم (جان دوكابو) التذكرة من العبرانية الى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم تواتت التراجم عام 1280 م والطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها الى 1531 م وهى تحتوى ايضا على (كليات ابن رشد) .
وهناك رسالة في امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلى بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول (الخواص) بمكتبة بارس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات .

ولابى العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندى حول (تركيب الادوية) .

وتوجد نسخة من « جامع اسرار الطب » لابي العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط وهى تحتوى على 185 ورقة .

ولولده هو ابو مروان عبد الملك بن زهر خديم المرابطين مثل ابيه والى كتاب (الاقتصاد) لابراهيم بن يوسف اخى على (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ وهو - كما يقول المؤلف - عبارة عن تذكرة لمن سبق له ان قرا كتبنا اخرى في الطب فالمؤلف لا يتكلم مع العموم ولكن مع طبيب مثله وقد اوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل اورد لذلك رسالة لم تلتنا ويذكرون ان ابن زهر هذا اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى (الرازى) في الشرق .

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن اطباء عصره فذكر انهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وان الناس يجهلون الطب لان الطبيب الذى يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الادوية دون تحجيس للحالة في جميع خواصها ثم ذكر انه استدعى يوما من الايام لدى امير مرابطين فوجد

عدد 2960) تحتوي على (كتابي الاغذية والتيسير) لابن زهر « والتذكرة » لابي العلاء ورسالة في الادوية . وقد نهج ابن زهر في (كتاب التيسير) أسلوبا جديدا في (الحكمة القياسية) مستخدما التحصيل العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة والتحصيص العلني وليس من صناع اليد كما يقول في « التيسير » اما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر انه ياتى من اجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لان رؤية الجروح تثير في نفسه ضمنا يوشك ان يسفر عن اغماء ولكنه لا يكره تحضير الادوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده ابي العلاء حتى ولو اوصى بذلك (جالينوس) على خلاف (الرازي) . وتحدث عن الاعمال اليدوية في الطب فلاحظ انها موكولة لاعوان الطبيب مثل الفصد والكي وفتح الشرايين اما مهمة الطبيب فهي تقرير نظام الاكل عند المريض ووصف الادوية له فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وخكى ان والده لم يباشر شيئا من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو اراد ذلك لما وفق لعدم الاستيناس وتحدث عبد الملك عن نفسه فذكر انه كان هو نفسه ولوعا بالباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الادوية والتوصل الى قيمها وتركيباتها . ولعل ابا مروان توصل بفضل قياسته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية واجريت له عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة فعولج المريض .

وقد اختص ابن زهر في امراض (الجهاز الهضمي) واستعمل انبوبة مجوفة من التصدير لتنفيذ المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف (طفيلية الجرب) وسماها صؤابة الجرب كما بسط طرق العلاج القديبة واوضح ان الطبيعة — اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري — تكن وحدها في الغالب لمعالج الادواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية) .

وكان ابو مروان اذا عالج مريضا نسي نفسه واستهلك في مريضه وهذا هو سر عبريته فاذا عرضت عليه حالة شائكة حاول ان يعيشها واستند من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب اطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه (التيسير) الذي ترجم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول

جماعة من الاطباء شبابا وشيوخا لم يسبق له ان تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذي يشكو منه الامير فبادر الاطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه اطباء عصره الاقدمين انه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللاطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فادهش معاصريه وكان والده ابو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين اى الدلاح في عرف المغاربة في امراض الكبد ويعالج بجسر النبض والنظر الى توارير البول .

وقد قرأ ابو الحكم ابن غلند والاشبيلي الشاعر على ابي مروان ابن زهر عام 535 هـ كتاب الاقتصاد في سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين . والنصور الموحدى هو الذى استقدمه للمرة الثانية الى مراكش عام 580 هـ وحيث مات في السنة التالية .

وقد سبق لعبد المومن ان اختصه لنفسه وعول عليه في الطب وله الف (الترياق السبعيني) وانبث كرمة عنب كان يسقيها من ماء مسهل لكراهية عبد المومن لشرب المسهلات فصار يعطيه من ثمارها وقد الف له كذلك (كتاب الاغذية) (ابن ابي اصيعة ج 2 ص 66)

وكتاب (التيسير) قد كتبه ابو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه (الكليات) وقد ذكر ابن زهر في آخر كتابه ان الشخص الذى كلف بمراقبته في التأليف لم يرقه الكتاب لانه يخالف التعليمات الصادرة اليه ولان فهمه يعسر على من ليس عنده مسكة من الطب لذلك الحق ابن زهر « الجامع » بآخر الكتاب فهل عبد المومن هو الذى امره بتصنيفه ؟ ويظهر من تحليل (لوكليير) لكليات ابن رشد المترجمة الى اللاتينية ان ابن رشد ينقل عن (تيسير) ابن زهر . وقد أكد ابن عبد الملك في (الذيل والتكملة) ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره .

وتعرض ابن سعيد في الرسالة التى ذيل بها رسالة ابن حزم في فضل علماء الاندلس — لعبد الملك بن ابي العلاء بن زهر فذكر ان (كتاب التيسير) مشهور بأيدى الناس بالمغرب وقد سار ايضا في المشرق لنبله (الفتح ج 2 ص 778) . وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس مجموعة (تحت

(مخطوط بمكتبة ليد) ثم الى الايطالية عام 1260م .
وقد تحدث ابن زهر في كتاب (التيسير) عن
(يمين ابقراط) الذي كان يطالب بها جميع من يدرس
مصنفاته ويقتضى منهم الزام تلايذهم بها وقد ذكر
ابن زهر ان والده ابا العلاء تلقى اليبين منه عندما
كان لا يزال طفلا لدى ابتدائه دراسة الطب وحكى
ان احد الثوار طلب منه سما غابي معرضا نفسه
للخطر ثم سقط هذا الثائر مريضا وبدلا من ان يقتضى
الطبيب عليه عالجه باخلاص طبقا لمبادئ (ابقراط) .
وقد وهم (كودار) فزعم في كتابه حول (تاريخ
المغرب) (ص 452) ان ابا مروان ابن زهر يهودى
ثم اكد ان ابن زهر استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة
العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له
عبقرية نذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها
وهي الصيدلية والجراحة والطب العام .
والحفيد ابو بكر بن ابي مروان كان طبيبا شاعرا
متين الدين خدم الدولتين اللتونية والموحدية (عبد
المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفي عام 596 هـ
بمراكش الف (الترياق الخمسينى) ليعقوب المنصور
ودس اليه ابن بوجان وزير المنصور السم هو وابنة
اخته وكانت هي وامها عالمتين بالطب لا سيما في امراض
النساء وتدخلان الى نساء المنصور (ابن ابي اصيعة
ص 67) وكان ابو بكر يحفظ صحيح البخارى باسائده
! الانيس المطرب ج 2 ص 180 ! ولم يكن في زمانه
اعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر (ذي الرمة) وهو
ثلاث لغة العرب (المطرب لابن دحية) .
وولده عبد الله بن الحفيد خدم الناصر بن
المنصور وكان عالما بأسرار الصناعة وتوفى مسووما
في رباط الفتوح عام 602 هـ ودفن بها وهو ابن 25
سنة (ابن ابي اصيعة ص 74) .
وقد امتد العهد المريني والوطاسى حوالى ثلاثة
تروان (من 637 هـ الى عام 961 هـ) تقلب المغرب
خلالها في شتى التطورات من الازدهار الى الانهيار وقد
اعتلى بنو مرين اريكة العرش في السنة التى انتهت فيها
الجماعة الكبرى التى استمرت من 619 هـ الى 637 هـ
ومع ذلك فهذا المنصور المريني كان — كما يقول
طبراس — اقوى ملك في المغرب الاسلامى (تاريخ
المغرب ج 2 ص 28) بينما امتد نفوذ ابي الحسن
من (قشتالة) الى السودان ومصر (ج 2 ص
61) .
وكان الطلبة ايام ابي عنان « اعز الناس واكثرهم

عددا واوسعهم رزقا » (النيل ص 260) .
وابو يوسف المريني هو الذى صنع المارستانات
في جنوب المغرب للغرباء والمجانين وأجرى عليها
النفقات وجميع ما يحتاجون اليه من الاغذية وما
يشتهونه من الفواكه وأمر الاطباء بتقيد احوالهم في
امورهم ومداواتهم وما يصلح احوالهم (الذخيرة
السنية ص 100) ولم تكد تخلو مدينة من ماستان
حتى ذكر (مارمول) ان (شالة) نفسها كان بها
مستشفى (وصف افريقيا باريس 1667 — ج 2
ص 24) .
على ان الطب كان في افريقية — كما كان في
المغرب — مشاعا بين طبقة وافرة من الفقهاء
والمحدثين والادباء . فهذا مثلا الامام السنوسى شارح
البخارى له شرح على رجز ابن سينا في الطب وله
شرح كبير على الحونية في الفرائض والحساب الفه
وهو ابن تسعة عشر عاما (النيل ص 353) .
وفي خصوص فاس ذكر على بن ميهون في تأليف
له استطرده فيه الكلام على فاس انه ما رأى مثلها
ومثل علمائها في حفظ نصوص كل علم مثل النحو
والفرائض والحساب والمنطق والتوحيد والبيان والطب
وسائر العلوم العقلية . ما رأى مثلها ومثل علمائها
نينا ذكر في المغرب وتلمسان وبجاية وتونس والشام
والحجاز ومصر رأى ذاك كله بالمشاهدة (سلوة
الاتفاس ج 1 ص 74) .
غير ان ابن خلدون اكد انه لم يشاهد في المائة
الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لاجل انقطاع
ملكة التعليم عنهم (نشر المائى ج 2 ص 97) .
ولكن حوالى 620 هـ اى بعد مرور بضع سنوات
على ظهور المرينيين (عام 613 هـ) تحدث المراكشى
صاحب المعجب عن فاس فذكر انها حاضرة المغرب
وموضع العلم منه اجتمع فيها عام القيروان وعلم
قرطبة حيث رحل علماء المدينتين ونزل اكثرهم بفاس
« وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب »
(ص 220) (4) .
وذكر لوكليز انه منذ اندراس اعلام التدريس
في قرطبة والقيروان لم يكن لفاس ولا لباقى مدن
المغرب اى نظام مقبول في التعليم (ج 1 ص 575) .
وقد اكد رينو ان علم الطب كان يدرس في جامعة
انقرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس
المعربة الا ان كتب خزانة القرويين اندرس بعضها
على يد الاسبان عام 1161 م ولم تعد تدرس العلوم

والطب رسميا اللهم الا ما كان من دروس يلقىها (اطباء) في جوامع العاصمة او بعض زوايا المدن الاخرى (6) حيث يغلغون على المصنفات العربية المخطوطة او المطبوعة الموجودة في الطب بالمغرب محافطين بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقي . وقد تأزمت الحالة في المغرب كذلك بعد تسمية

ابى الحسن في افريقية وطريف بالاندلس وتوالى الازمات الاقتصادية والايوثة التي جرفت بالعالم اجمع في ذلك العصر وكابد المغاربة من جرائم المرائر فانشتر الفقر والمرض وانتكس العمران وهلك العامة وكادت تدرس معالم العرفان . نعم « في آخر القرن الثامن تبدلت — كما يقول الناصري — احوال المغرب بل واحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومآلوفاتهم وازيائهم » وذلك — حسب ابن خلدون — نظرا لما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها ونزل من حدها واوهن من سلطانتها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر تخربت الامطار المصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعت الدول وانقبائل وتبدل الساكن وكانى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانه » (الاستقصال ج 3 ص 144) .

« ودراسة عصر ابن الخطيب مفيدة — كما يقول رينو — للطبيب لانها عصر الطاعون الاسود الاكبر الذي هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمورة وقد صنف بعض اطباء المغاربة مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجه » (الطب القديم بالمغرب ص 47) .

وقد ادى هذا الاضطراب الى سقوط المراكز المهمة في المغرب تدريجيا في قبضة البرتغال الذي استمر احتلاله لها ازيد من ثلاثة قرون فكان ذلك رد فعل لثلاثة قرون التي استمرت الاندلس خاضعة لظوانها للمغرب

وفي الشرق بدا عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية للتاسع على اثر السيول الجزائرية التي حطبت في طريقها معالم المدينة تحت امرة جنكيز خان وتيمورلنك واذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن المدرسة التنظيمية التي كانت ما زالت قائمة النيسان

من استأذنها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكير انه امكن في هذه الفترة تسجيل نحو الاربعمين عالما نصفهم من الاندلس الا يوجد من بينهم طبيب مشهور « لقلة الطرائف والاكتفاء بالجمع والتأليف (ج 2 ص 258) . وأكد رينو في كتابه « الطب القديم بالمغرب » انه بعد عصر بنى مرين سادت في المغرب الفوضى فاقبل نجم فاس ابان السعديين ولم يذكر اى طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية خلال هذه الحقبة من تاريخ المغرب الى آخر القرن الثامن عشر حيث لوحظ السيم يصنف « ذهاب الكسوف » الطبيب مجيد بن عزيز المراكشي الذي اقتبس فصل طب العميون من الكحخل المشرقي على بن عيسى « (الطب القديم بالمغرب ص 75) .

ولكن رينو هذا عاد فاكد في الخطاب الذي القاها في المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ الطب (طبعة جنيف 1926 ص 3) الفوضى التي اتحمته فيها حروب آخر ملوك بنى مرين فاعاد ملوك الشرفاء تدريجيا وحدة البلاد وقد تحدث ليفى بروفنصال في كتابه « مؤرخو الشرفاء » عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية فمن الغريب ان لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم الطبية .

ومن تبع من الاطباء في هذا العصر عبد الرحمن تقين القصرى ثم الفاسي المحدث كان مشاركا في الادب والتصوف والطب يقرى الفية ابن سينا توفي عام 956 هـ (النيل ص 153) وكذلك ابو القاسم الوزير الفسائي له في الطب موضوعات وشرح على حبيات ابن عزرون وكتاب في الاعشاب (الدررة 466) ورغم ما استظهره رينو من ان التعليم الرسمي للطب والعلوم اندرس بجامعة القرويين اواخر القرن الماضي (الطب القديم بالمغرب ص 77) فان دلفان اشار في كتابه حول فاس وجامعتها (المطبوع عام 1889) الى اجتهاد الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والمنظومة لابن سينا وزيدة الطب للجرجاني والتذكرة للسويدي وتذكرة الانتطاي وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري .

وذكر رينو ان بعض الاطباء المغاربة كانوا متخصصين بعضهم في الاوجاع وبعضهم في امراض العميون وبعضهم في الحبيات اما اطباء الانسان فانهم يمارسون هذا الفن — في نظر رينو — بمهارة كبرى (ص 122)

وكان الجدرى يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعتمد بعض الناس الى التلقيح ضد الجدرى بحقن جراثيم بنور ودمامل العجل او الناقة بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون الى الراحة متى كان مظلماً .

وقد ظهر اطباء منهم في القرن الماضي بولاي عبد السلام العلى الذى درس الطب بالقاهرة وله كتاب سياه (ضياء النبراس) لورد فيه اسماء اساتذته المسلمين والاجانب فى الاسطالية الكبرى بالقصر العينى الذى أسسته عام 1827 الدكتور كلوط (كلوط باى) باير من الخديوى محمد على (خطاب رينو ص 6) وقد ذكر الطبيب المغربى فى كتابه النبراس انه عندما كان طالباً فى مصر عام 1291 هـ (الضياء ص 59) فكر فى تأليف كتاب موسوم بالاسرار المحكمة فى حل رموز الكتب المترجمة لتفسير المصطلحات الفنية فى العلوم الفخرية التخيلية فى العربية وانه اقتصر وقتاً على تصنيف مختصر لشرح تذكرة داود الانطاكى وهو « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة فاس » وقد طبع بفاس عام 1318 هـ . وعلق رينو على هذا الكتاب ملاحظ ان المؤلف يعطينا مفردات بربرية برادفة للمصطلحات الطبية العربية

وهذا الكتاب متين التحليل ويعتبر فى نظري نقطة تحول مهمة فى تاريخ الطب المغربى حيث يخلو المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والادوية واتواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب وفى المغرب مصححاً فى بعض الاحيان اغلاط سلفه وبنظراً بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء

الجديدة بأوروبا وامريكا وياتى أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والأتوية ويحكى عن تجارب شيوخه فى قصر العينى واسهامه الشخصى فى هذه التجارب وقد ذكر انه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العينى خلال تراعته علم الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك فى تحضيرات بالمعمل الكيماوى بمصر (ص 72) .

وقد أشار رينو الى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس فى 8 شوال 1310 هـ لامتحان طبيب مغربى نشهوا بعد استفساره بتعلمه فى الطب وتوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين انسواع العصب والعضلات فى الجسم ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب الطبية وخواصها واسماها وطرق اذابتها فى الوقت الصالح والاقوات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب اجازة (ص 121) .

وهكذا يتجلى لنا من هذا العرض الموجز ان المغرب أسهم بحظ وافر فى وضع أسس فن الطب أيام المرابطين والموحدين غير ان هذا الفن وكذلك غيره من التعاليم والعلوم والفلسفة بدأ يتقلص فى عهد المرينيين ثم الشرفاء بسبب الاضطرابات والازمات المتوالية وبالاخص من جراء الذبول الذى لحق معالم الحضارة العربية عموماً والمغربية خصوصاً ولكن هذا لا ينقص من قيمة التراث المغربى الثمين الذى يعد لبنة اساسية فى مقومات الحضارة الانسانية .



هوامش البحث :

- (*) محاضرة القيت فى المؤتمر الاول للطب الاسلامى الذى ائتمعت بالكوييت .
- (1) - توجد فى اسطابول نسختان من كتاب الحشائش لفيثوريديس رسمت فى اولها صورة الملك اليونانى وقد اشار بوشنال وكورز الى نسخة من هذا القبيل انتسخت فى بغداد عام 637 باط كما يوجد فى نفس المكتبة مختصر كتاب الامتداد فى الادوية المفردة
 - (2) - يوجد الجزء الاول من هذا المخطوط فى المكتبة الوطنية بالره ميلانج (بختلط) لوى ماسينيون ج 2 ص 93 .
 - (3) تاريخ طب العرب (مجلدان - طبعة بيروت) - طبعة ثانية لوزارة الاوقاف المغربية بالتصوير (1400 هـ) (1980 م) .

- (4) ابن النفيس المصري اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 - بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس الى ذلك في « الكتاب الشامل في الطب .. الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد اهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى تلاون .
- (5) أكد ليفي برونفصال « انه بفضل ملوك بني مرين لم تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر الميلادي لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى » (هسبريس عام 1952 ص 3) .
- وقد اعتبرت فاس من طرف باديا ليلبيش المعروف بعلى باي العباسي بمثابة ائينة افريقيا وسطوح ان ائينة هي عاصمة الفكر اليوناني كما دللنا في كتابه عن الغرويين جامعة فاس بانها اول مدرسة في الدنيا (ص 12) .
- وفكر الدكتور ريتو ان مدينة « فاس مهد الحضارة التي تجلب الطباء والطلبة من العالم اجمع وهي كعاصمة ائينة بالنسبة للاسلام حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب » (الطب القديم بالمغرب ص 77) .
- وتحدث دوكامبو عن جامعة الغرويين فلاحظ « انها كانت في العصور الوسطى ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والاديان » (المغرب المعاصر مملكة تنهار باريس 1886 ص 12) .
- وقد اشار (كابريل شارمس) في كتابه « سفارة الى المغرب » (ص 254) الى عصر المجد الذي كان المغرب فيه ملتقى جميع العلوم وجميع الفنون التي تنتشر من هنالك في اوربا ، ثم ذكر مدينة فاس التي يرى معظم مسلمي افريقيا انها اعظم مدينة بتقدسة بعد مكة نظرا لاسلمها وللدور الذي قامت به في تاريخ الاسلام فقد كانت فاس مركز القوة العربية عندما كان نورها يتألف وحتى عندما اصبحت مراكز عاصمة المغرب السياسية كانت فاس بفضل مهادها الشهيرة ومساجدها عاصمة المغرب الاسلامي فكرا وادبيا بل ان مدارسها ككثرت طوال مدة مديدة اولى مدارس العالم « (ص 297) وهنا في هذه المدينة » اتيق ما ينسى بالحضارة الغربية التي اشع نورها في اسبانيا فاضاء جوانب اوربا المتوحشة (ص 298) .
- (6) - وورد في الجزء الاول من سلسلة « مدن المغرب وقبائله » المتعلقة بالرباط وناحيته (ص 32 و 225) ان اليونانية بتلا كانت مدرسة للطب .